بلد "السلام!"

حتى ذلك التاريخ لم يكن لدي صورة واضحة عن الدور الذي تقوم به أميركا في سوريا.. كنت مشغولة بإعداد نفسي لامتحان ال .B.A التابع لجامعة لندن، وكنت أقرأ بانتظام مجلة ريدرز دايجست باللغة الإنجليزية لتقوية لغتي وتبدو لي أميركا بلدا بعيدا محايدا وشعبها يحب السلام.

كان منزلنا الذي استأجرناه في شارع السادات يطل على الغوطة ولا يفصلنا عنها الاّ شارع مترب، وكان قد خرج لتوه من يد البناء، وبقيت شهرا في منزل أهل زوجي حتي يتم دهن البيت وتسليمه لنا، وفي الأمسيات كنا نتدرج من منزلنا على طول شارع بغداد الى بوابة الصالحية حيث توجد مكتبة صغيرة عند المنعطف فيشتري عفيف صحيفة "الأومانيتيه" الفرنسية وينتقي كتابا تقدميا مترجما عن اللغة الفرنسية، ونعود كلانا الى البيت. وبعد عشاء خفيف نستدفئ في فراشنا أطالع أنا مسرحية فرنسية مطلوبة مني للإمتحان وأسأل عفيف عن معنى بعض الكلمات أوالجمل، وأقرأ أحيانا في "الأومانيتيه" أشعار أراغون، أو أطالع فيها تطور الأحداث في ايران. كان عفيف يتعاطف مع الحركة الوطنية لمصدق الذي أسقط الأمريكيون حكمه فوضع في زنزانة يسح منها الماء ولوحق أنصاره في الجيش وحكموا بالإعدام. وكان عفيف يعلق بغضب: "ان شرائم الخيانة خرجت من السفارة الأمريكية وعلى رأسها زاهدي لتعيد الشاه الى الحكم، والسافاك المجرم ليجلد شرفاء الناس ويرضخهم لنظام القهر الجديد الذي تتزعمه أميركا!"

ونشرت الأومانيتيه ذات يوم صور الضباط الذين نفذ فيهم حكم الإعدام ومن بينهم ضابط يدعى "أسد الدين" الذي رفض أن يضع على وجهه القناع، وواجه قاتليه وهو يهتف بحياة وحرية وتقدم أمته.. أجهشت بالبكاء، وبكيت لأسد الدين ورفاقه كما لم أبك من قبل، وانهارت على التو الصورة التي كانت قد تشكلت في ذهني عن أميركا بأنها محايدة، بعيدة، مشغولة بشؤونها، محبة للسلام وتعايش الشعوب!..

ان الحركة الوطنية هي أصيلة، إفراز طبيعي لجماهير الشعب، وإجهاضها جريمة لا تغتفر.. تملكني إحساس غامض بأن زوجي بوطنيته، وكرهه للظلم

سيواجه متاعب جمّة مع الأميركيين.. كنت قد قرأت كتابا استعرته من مكتبة Y.M.C.A.في القدس لأستاذ تاريخ في جامعة هارفرد يدعى بيكر (لا أذكر الإسم الأول) عما يجب أن تكون عليه سياسة أميركا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان يحبذ أن تسعى لحكم العالم لأنها الأكثر تطورا ماديا وعسكريا وعلميا وثقافيا فتفيد وتستفيد. وهذا ماأخذت تفعله عمليا بإجهاض الحركات الوطنية، ومساندة أنظمة تدور في فلكها.

كنت حاملا في شهري الخامس حين رجع عفيف من فرنسا وكان في مهمة لشراء آليات للمصلحة الجغرافية التي يرأسها، وفي نفس الوقت، كان قد قام بزيارة خاطفة الى ألمانيا الشرقية بحيث رتب الأمور سرا مع مسؤولين سوفييت لشراء أسلحة للجيش السوري من الكتلة الشرقية. وفي أوائل حزيران من عام 1955 كنت أستعد للسفر الى بيروت، فذهب معي عفيف، وحجز لي مكانا أنزل فيه في هوستيل الجامعة الأميركية القريب من الجامعة حيث يجري الإمتحان التابع لجامعة لندن.. كنت قد أنهيت الشهرالسابع من حملي ولم أتصور أبدا ما سيجري لي في أثناء ذلك الشهر، وعاد عفيف الى عمله في دمشق وهو ينتظر مني أن أتلفن له حين أنتهي حتى يأتي ويصطحبني معه..

في العشرين من حزيران كنت قد أنهيت أكثر من ثلاثة أرباع المواد المطلوبة مني وكنت واثقة من النجاح فذهبت الى الكوافير وقصصت شعري وقام المزين لي بتسريحة جميلة لأن رحيلي قريب.. فلم يبق لي الا مقابلة باللغة الفرنسية وتاريخ الأدب.. دخلت القاعة وأخذت مكاني، وكنت أشعر بألم في ظهري، وتقلصات في جنبي فأتحامل على نفسي.. ولاحظت المراقبة أنني لست على ما يرام فجاءتني بوسادة أريح ظهري، وبكرسي صغير أرفع عليه قدمي، ولكنني لم أستطع الإستمرار.. أحسست بأعراض غريبة تنتابني، فتوقفت عن الكتابة وناولت ورقتي في تاريخ الأدب دون إنجاز وأخبرتها بأنني أحس بأعراض ولادة، وتركت القاعة، وذهبت مهرولة الى الهوستيل وأنا خجلة من السائل اللزج الذي يخرج مني دون إرادتي على طول الطريق.. حمدا لله أن الوقت عصر والطريق شبه خال.. تلفنت المسؤولة عن الهوستيل الى طبيب فجاء على عجل

واحتشدت الطالبات عند الباب، وأنا أنقل الى المشفى الألماني على عجل، وتلفنت مسؤولة الهوستيل الى أهل عفيف، فجاء وأخته الكبرى وبقيا قربي.. كان الطبيب المسؤول قد قدّر أن الولادة لن تكون الا في صباح اليوم التالي، فذهب الى منزله، وبقيت راهبة مناوبة أحرجها خلو المشفى من طبيب يسعفني أثناء المخاض. فقد تسارعت التقلصات، وباتت الولادة وشيكة فكان عفيف يمازحني حين أهدأ ويقول"بعثنا بك لتأتي بشهادة وإذا بك ستلدين طفلا قبل الأوان.." وحين تبدأ التقلصات يشتم الطبيب ويعلو صوته في أرجاء المستشفى ويعطيني ذراعه لأعضها لتخفيف ألمي. وفجأة انزلقت كتلة مني، ورنّ صوت سلام المتلهفة على مغادرة سجن الرحم الى الحياة.. كان صوتها الرنان لا يتناسب أبدا وحجمها الصغير.. كنت أشعر بالكآبة تغمرني.. لقد فشلت في أمرين لا يتناسبان وطموحي، فليس سهلا علي أن أعاود الكرة في العام الذي يلي، ولدي طفلة تحتاج الى عناية خاصة كي تعيش، وبعد عامين يتغير منهج الإمتحان ويكون علي دراسة أعمال أدبية أخرى، وأنا أريد أن أنتهي من كل هذا لأتفرغ الى أدبي..

مرت خمسة أشهر على ولادتي، وسلام لا تكسب وزنا يذكر.. أبقيتها كما نصحني الطبيب في بيروت في غرفة معتمة بعد تهويتها من أجل سلامة عينيها.. وكنت أحممها كل يوم كما نصحتني الراهبة التي أمسكت بها من قدميها وهي تلوح بها وتقول " لاتخشي عليها.. انها تستطيع الاحتمال كأية طفلة اكتملت شهورها في رحم أمها" لم أكن أسمح لأي كان بالإقتراب منها سوى والدها الذي كان يساعدني في حمامها، وأرضعها حليبي، ولكن صراخها لم ينقطع، وكنت في أيام الشتاء الباردة أسخن لها القطن لأدفئ سريرها ولا أستخدم قربة ماء ساخن خوف أن تنز ويبترد جسدها. كان بكاؤها قويا وصراخها عاليا، وهو ليس دليل علة، فرأى عفيف أن يستشير طبيب أطفال من أصدقائه ففحصها وقال لي "الأطفال الذين يولدون قبل الأوان نادرا ما يعيشون.. انها في وزن أقل من طفل طبيعي ولد حديثا.." وواساني بما معناه، أنها لو ماتت فليس علي أن أحزن كثيرا، فسيعوضني الله عنها.. كظمت غيظي دون أن أردّ عليه، وحين خرج الطبيب قلت

لعفيف "لاأريد هذا الطبيب الفاشل أن يطأ عتبة بيتي مطلقا.. جد لي أفضل أطباء الأطفال في البلد ليعرف ما بها.."

أخذني الى الدكتور "سهيل بدورة" وكان أول ما فعله أن أمسك بجلدة بطنها ورفعها باصبعيه وقال "انها تكاد تموت جوعا.." وفحص حليبي، وأجريت لي فحوص أخرى، فوجد أنني حامل وأنني أغذيها بحليب فقد خواصه الغذائية بسبب الحمل..

وضعتها تحت إشرافه الأسبوعي، وكان يعطيها في البداية حليبا قليل الدسم حتى لا تصاب بالإسهالات، ويتدرج بغذائها وتنويعه حتى أصبحت في عامها الأول مثل الأطفال الذين ترسمهم دعاية نسلة على علبها، وتهدي صورهم مكبرة لتزيين الصيدليات.

كان عمي الذي خاب أمله أنني أنجب لعفيف بنتا ضعيفة بدل صبي قوي، يقوم بزيارتي كل أسبوع ويسألني باستمرار عن لون عينيها الذي كان يتحول من أزرق الى بنفسجي الى عسلي الى بني.. كانت طفلة جميلة وأجمل ما في وجهها, عيناها المعبرتان، وشعرها الغزير وصوتها الموسيقي.. وأولع بها عفيف ولعا شديدا.. وذات يوم وقعت من على الديوان، فأقام الدنيا وأقعدها لإهمالي حتى تمنيت أن أنجب له الكثير من الأولاد فيخف هوسه بها، ومع ذلك بقيت لها المكانة المميزة في قلبه حتى بعد أن أنجبت له يوسف الصبي القوي بعد أحد عشر شهرا من ولادتها، والذي رفع مكانتي عند عمي، لكن عفيف بقي على معزتها طوال حياته.

كنا قد انتقلنا من منزلنا في السادات الى بيت في عرنوس بعد أن استلم عفيف قضية محاكمة قتلة المالكي، وبدأت معها سلسلة المؤامرات على سوريا والمحاكمات التي كان يرأسها الواحدة تلو الأخرى.. وكنت أجلس وعفيف على حشية في الفرندة أطالع معه محاضر قضية المالكي، وفي قلبي أسى لا يوصف.. كانت لدي صداقات في الحزب الذي تبين لي بشكل واضح تورطه في القضية.. سامي الخوري، الأمين العام للحزب في سوريا الذي طلب مني ترجمة لوحات رأس شمرا، ففعلت ونشرت لي الترجمة الحرفية ومعها الترجمة التي تصرفت بها

بلغة شعرية متحررة في صحيفة الحزب في لبنان فلقيت استحسانا كبيرا. وهنـــاك أخته عبلة الخوري المذيعة البارزة التي كانت تستقبلني بترحاب كبير في الإذاعة وتأمل أن تكسبني في صفوف حزبها، وفي إحدى زياراتي لدمشق أخـــذتني الـــى اجتماع حزبي حيث قدمتني الى الحضور بأنني المترجمة للوحات رأس شـــمرا، فتعرفت حينذاك على أدباء قوميين، كانت وجوههم أتعرف اليها لأول مرة. وهناك غسان جديد الذي كانت صورته بلباسه العسكري ووسامته معلقة في طرف مـــرآة ابنة عمي زوجة العقيد محمد ناصر قبل اغتياله عـــام 1950، اذ كـــان صـــديقه الحميم، وكثيرا ما اقترحت ان تعرفني عليه حين كنت لا أزال في دمـــشق بعـــد قدومي من فلسطين، ولم أبرحها الى اللاذقية للتدريس. وهناك أزواج صديقات لي في اللاذقية تزوجن عسكريين وأسماؤهم تأتي في الملفات. وعبد الرحمن الخيـــر الشيخ الذي نمت بين عائلتنا وعائلته صداقة وطيدة عن طريق بناته اللواتي كنـــت أدرسهن في ثانوية اللاذقية وحملن لي الحب والتقدير حتى بعد أن لوحق والـــدهم وسجن، وفؤاد الشواف الذي كان صديق طفولة لأخي عادل قبل أن نـــسافر الـــى فلسطين، وعاد ليجدد الصداقة معه ومع أخوي هاشم ومعتصم ويقنعهما بفـــضيلة المصارف الرأسمالية في تطوير البلد. وكنت عن طريق الخيّر أحصل على كتب القوميين، وأتعرف الى أنطون سعادة وأقرأ لشعراء قوميين، وكان أحدهم قد كتب قصيدة طويلة بعنوان شمشون ودليلة، يبررفيها خيانة دليلة لشمشون فـــي ســـبيل قومها.. فقام جدل طويل بيني وبين الخيّر، وكنت في موقفي أربأ بالحب أن ينحط الى درك النفاق والخيانة والتجسس تحت أي عذر كان، فان كان هناك حرب بين قومين، فيجب أن تكون حربا شريفة وليس بوسائل ملتوية.. وكنت أتجادل معـــه ومع ابنة أخته سعاد العبدالله في موقف القوميين السوريين من مصر، فأنا كأديبـــة ناشئة، كنت أريد أن أسمع صوتي الى كل الأقطار العربية، وكسورية عرفت عن كثب المأساة الفلسطينية، كنت أتمنى أن تتوحد هذه الأقطار لتواجه عدوا يهـــددها جميعا، ولكن القوميين السوريين كانوا يحملون أفكارا انعزالية، ولا يريدون أبـــدا أية وحدة وخصوصا مع مصر.. وكانت تزور هذه العائلة فتاتان إحداهما خالـــدة الصالح التي جاء ذكرها في المحاكمات ودورها في إخفاء جورج عبـــد المـــسيح

مدبر قتل المالكي، وأختها سنية التي كانت إحدى طالباتي في اللاذقية، وكانتا محتجزتين أيضا ولم يأت دورهما في المحاكمة.

* * *

النويات الأولى للصراعات

تعرفت في اللاذقية على أناس كانوا يشكلون النويات الأولى للصراعات المقبلة على الساحة السورية، والتي برزت إبان الهجمة الإمبريالية الأميركية على سورية بشكل واضح، فتنشطت الأحزاب النائمة، وكان منزلنا يجتذب عددا من ذوي العقائد والآراء المتباينة، فالأدب يضع الإنسان في بؤرة النور، وكثيرا ما حاولت جهات مختلفة جري الى مفاهيمها، ولكنني كنت حذرة، ولم أنتم الى أية جهة، وكانت لدي نظرة عامة عنها كلها الاّ أنها غير ناضجة تمام النضوج..

ولا تبرح صورة المالكي، من ناحية أخرى، ذهني بوجهه الطفولي يوم ذهبت الى الأركان حين كان في نيتي السفر الى السعودية لتدريس اللغة الإنكليزية، والتقيت بعفيف هناك وألغيت سفري.. وأسمع صوت عبلة يحذرني "لقد اختاروا زوجك لهذه المهمة ليحرقوه.. ان أبناءك سيدفعون في المستقبل ثمن العداء للحزب القومي السوري، ولن يستفيد من هذا الاّ الشيوعيون"..

التفت خلفي لأرى سلام التي تعلمت حديثا أن تقف على قدميها تحمل فرشاة شعرها وتنحت من الخلف رأس والدها فيقول لها "يا بابا، ليس عندي هنا شعر تمشطينه.. غدا أشتري لك "تنوسة" تتسلين بها عني" وفعل ذلك في اليوم التالي، وكانت لها تلك اللعبة الغالية المتينة الصنع التي رافقتنا الى مصر إبان الوحدة وانتقلت معنا الى بلغاريا بعدها وعادت سليمة معافاة الى سورية بعد انفصال الوحدة وكانت في السادسة من عمرها.

وأذكر عام 56حين ذهب عفيف مع الجيش المسافر الى مصر يوم العدوان الثلاثي عليها. وكانت سلام ترتدي جوربي النايلون الذي تهدل على ساقيها وحذائي العالي، وتركض في الفرندة وفي يدها عصاة الغسيل وفوطة مربعة من فوط يوسف المنشورة على الحبل قد ثبتت اليها، مقلدة الجيش الذي مرّ بشارعنا يحمل الأعلام ويهتف بالنشيد الوطني.. وأذكر فصاحتها اللغوية حتى حين كانت لا

تزال تجلس على "النونو" تقص لنفسها قصصا من بنات خيالها، وصراعها ويوسف الذي كان يصغرها، ولا يستطيع مجاراتها في التعبيرعن نفسه فيعضها حين يقع شجار بينه وبينها، فاذا ما ضربه عفيف لفعلته ثارت وبكت، وهي تشعر أن العقوبة هي أقسى مما ناله بالإساءة اليها.. كم كانت تكره الظلم حتى في سنها المبكرة، وكم كانت غيرية وكريمة، حين أهديناها لعبة أخرى في عيد ميلاد لها في بلغاريا، فأعطتها لابنة الجيران لأن لديها "ننوسة" تكتفي بها، وهي لا تمل من تمشيطها والعناية بها..

كانت في الثانية حين جاء الصحفي الأميركي جون ألسوب الى منزلنا، وصوّرها على كتفي والدها الذي أصبح رئيسا للأركان، ونشرت صورتها في كبرى صحف أميركا وتحتها مقال عن الجنرال الأحمر في سوريا، ونشرت الصورة في مجلة سورية وتحتها العنوان "السلام الأبيض على كتفيه".

* * *

ما قبل الوحدة

غرق عفيف في المحاكمات التي كان يرأسها، وكان هدفا لغضب دول كبرى استعمارية تمثل الإستعمار القديم والحديث، ودول عربية مرتبطة بها، وأحزاب داخلية شاركت في المؤامرات لقلب النظام الديموقراطي في سورية.. كان يستهدف دائما الصالح العام قبل مصلحته الشخصية، ويستلهم ضميره الحي، وحسه المنصف، وذكاءه الوقاد في إدراك مايجري في العالم.. وقد عاش في كنف والد مهنته القضاء وله مواقف رائعة في مجابهة الصلف الفرنسي في سورية، وأم رائعة قدمت ثلاثا من أبنائها لنصرة فلسطين بروح بطولية ندر وجودها بين نساء عصرنا..

ان المرحلة التي مرت في سورية قبل قيام الوحدة جاء ذكرها في كتاب عفيف "جزيرة الحرية الخضراء" الذي نزل على الإنترنيت في موقعه ضمن كتبه الكثيرة التي تفرغ لكتابتها بعد الإنفصال وعودتنا من بلغاريا الى دمشق، وأيضا في مذكراتي "أحاديث نزهة صباحية" والتي ستنزل على الإنترنيت عن قريب، ولا أنوي ترددها الاّ فيما يتعلق بمواقف توضح شخصية عفيف الفريدة من نوعها في

حياته العامة والخاصة.. حتى خصومه ما كانوا يشكون في نزاهته وتحريه الحقيقة، فاذا ما أرادوا انتقاده قالوا عنه بأنه "غير مرن".. لطالما افترى عليه الإعلام المصري ودس السموم بعد أن فقد مركز قوته، ولكن كل هذا تلاشى، وبقي جبينه ناصعا ومواقفه مشرفة حتى آخر حياته.. من أحاديث نزهة صباحية أقتطع هذه الصورة عنه متحدثا فيها عن نفسه:

–لم يحدث أبدا حين كان يوكل الي أمر القضاء أن تصرفت بدافع الحقد أو الإنتقام، بل كنت أتحرّى الحقيقة دائما فيما يصدر عني من أحكام. هكذا فعلت مع فؤاد جديد حين بدت لي أدلة اتهامه غير مقنعة، بالرغم من إصرار النائب العام على إدانته بأنه كان شريكا في مقتل المالكي، فليس بالضرورة أن يكون كذلك لكونه أخا لغسان جديد المتهم الأول في المؤامرة.. فالأحرى في مثل هذه الحال أن لا يورط الأخ أخاه، ان لم يكن له فيها دور فعال، باعلامه مسبقا بها وجعله شريكا فيها..

وفي مؤامرة أخرى حققت فيها مع ضباط مسرحين اتهموا بمحاولة انقلاب لصالح العراق، تبين لي أنها تفتقد الحجة المقنعة.. فهم ضباط يعملون بمؤسسات الشراء وليس تحت أيديهم قطعة سلاح أو يتحكمون بموقع حساس، فبأي شيء يصنعون انقلابهم؟ ذهبت الى شوكت شقير فاذا بي أرى عنده قاض مدني اختير للقضاء العسكري.. كان يتمّ حديثه لشقير قائلا: "اذا نفذوا من هذه التهمة فاننا نعلقهم بهذه التهمة، واذا نفذوا منها نعلقهم بثالثة" ثار غضبي وصحت به: "يخرب بيتك! هل أنت قاض أم جلاد؟ نعلق مشانق الناس لمجرد أنهم لا يعجبوننا، أو هم خصوم لنا في الرأي، أوهم من غير طائفتنا؟ والتفت الى شقير قائلا: "سيادة اللواء، انه يورّطك، فالجماعة لم يقترفوا ذنبا ولم يقوموا بعمل يستدعي تيتيم أطفالهم أو سجنهم والتنكيل بهم"..

ولم أخرج من عنده الاّ وبيدي قرار الإفراج عنهم.. وكان أول ما فعلته حينما عدت الى الشعبة الأولى أن طردت ذلك القاضي من مديرية القضاء العسكري، لأنه غير جدير بمنصب يوكل اليه فيه أرواح الناس..

* * *